وقفة
في ظل تمثال
رامسيس الكبير (١)

[امتحننا شاعر القطرين خليل بك مطران بهذه القصيدة العصماء وقد وصف فيها مفاخر الفراعنة بوصف واحد من اعلامهم كبيراً وهو رمسيس الثاني فجاءت آية في جمع الحقائق التاريخية والفلسفية والعمرانية كما هي آية في البلاغة]

سَنَاكَ يا نَبَأً في رَسْم انسانِ ... مِلءُ السَّوادَيْن من قلبي وانساني
لا وجهَ أبهَى ولا أزهى برونقهِ ... من وجهكَ النَّضْر في منحوتِ صوانِ
مَن المليكُ الذي تنبي جلالتهُ ... عنهُ ، ويمضي فما يثنيه من ثانِ
هذا فتى النيل ذو التاجين من قدَم ... هذا فتى مصرَ «رامسيسُها الثاني» (٢)
« سيزُستريس » الذي دانَ العتاةُ لهُ ... من قومِ حثٍّ ومن فُرسٍ ويونانِ (٣)
ان قصَّرَ الجيشُ اغزى الرأيُ امكنةً ... ما فازَ خاتلُها منها بإمكانِ
تمنونُ مُردي الاعادي غيرُ محتشمٍ ... بَطشاً ومُسدي الايادي غيرُ منّانِ (٤)
مستقبلُ الشمسِ عبرَ النهرِ ما طلعت ... صُبحاً برأسٍ من الجلمود رنّانِ (٥)
أناظرٌ انتَ لمّا همْ كيفَ خطا ... من الصَّفا غيرَ مُستاقٍ ولا عانِ (٦)
هو المضاءُ تراءى فاستوى رجلاً ... هو الإباءُ رعى ضعفي فحيّاني
قاربتُ سدتَهُ العُليا على وَجَلٍ ... ولم أخلْه يُناجيني فناجاني
تراهُ عيناي مغضوضاً لهيبتهِ ... طَرْفاهما وتراني منهُ عينانِ

(١) قيلت على اثر زيارة لهيكل الاقصر ومشاهدة هذا التمثال فيها وهو سليم يكاد ينطق ويهم بالتحرك من مكانه (٢) هو الاسم المصري الاصل لهذا الملك العظيم (٣) سيزستريس هو اسم آخر له سماه به اليونان (٤) تمنون هو اسم ثالث له (٥) هنا وصف بما اشتهر عن تمثاله القائم عبر النيل والمتهدم الآن (٦) عان اي مثيد

أرابني انني قبلاً بصرت به ... محنطاً مدرجاً في سود أكفان
أكبر برمسيس ميتاً لن يُلمَّ به ... موتٌ ، واكبر به حيّاً الى الآن
تقوّضَ الصَّرحُ فيما حولهُ ونجا ... على التقادُم لم يمسس بحدثان
لولا تماثيلهُ الاخرى محطمةً ... ما جال في ظن فانٍ انهُ فانِ
في مصركم عزَّ فرعونٌ فما خلدوا ... خلودَهُ بين ابصار واذهان
ولم يتمَّ لها في غير مدتهِ ... ما تمَّ من فضل إثراء وعمران
ولم يَسِرْ بينها مثلَ سيرتهِ ... ساعٍ الى النصر لا ساهٍ ولا وانِ
من منتهى النيل في ايامهِ اتسعت ... الى اعاليهِ في نُوْب وسودانِ
ومن علي الذرى في الطور عن كثبٍ ... الى قصيّ الرُّبى في ارض كنعانِ

***

في ارض كنعان ! الاّ ان عسكرهُ ... احسَّ مابأس شعبٍ غير مذعان (٧)
اعاد كرَّاتهِ فيها وعاد على ... اعقابهِ بعد ايغال وامعانِ
فما يُرَى تبعهُ وهو الضباب علا ... تلك الرُّبى فمحاها دحوَ قيعانِ (٨)
حتى تهبَّ بهِ ريحٌ فترجعهُ ... عنها عثوراً باذيالٍ واردانِ
وتبرزُ القمم الشماء ذاهبةً ... في الاوج تحسبها اجزاء اعنانِ
مغسولةً بدماء الفجر طالعها ... من ادمع القطر درٌّ فوق مرجانِ
سفوحُها حُرَّة والهامُ مطلقةٌ ... وكلُّ عانٍ بها بعد الاسى هانِ
وموقع الذلّ ناءٍ عن اعزّتها ... كموقع الظلّ عن هامات لبنانِ
لكنما الخُلْفُ في الجارين صار الى ... حُلفٍ وادنى الى الصلح الاشدّانِ

(٧) اشارة الى حروبه المتكررة مع قبائل الحثيين والى انه لم ينل منها مأرباً بجلاد ولكن قصريين آثاراً خلدت فيها بعد الصلح (٨) ازال اعاليها واظهرها كالارض المنبسطة

وان خيراً خليقاً من تروض به صعباً وتوليهِ وداً بعد عدوانِ
تصافيا فصفا جوُّ العلى لهما وطوَّعا ما عصا مما برومانِ
وطالما كان ذاك الالفُ بينهما على صروف الليالي خيرَ معوانِ
في مبدإِ الدهر والاقوام جاهلةٌ زها بمبتكرات العقل عصرانِ
عصرٌ بما ابتدع الفينيق واخترعوا فيهِ لهُ فضل سبّاق ومحسانِ
وعصرُ مصرَ الذي فاقت روائعهُ آيَ الاجدّين من فخم ومزدانِ
مما توالت على الوادي به حقب زينتْ حواشي الصفّا منه بأفنانِ[٩]
حضارتانِ سما شأو التهى بهما افادتا كلَّ تثقيفٍ وعرفانِ
ما زال بينهما يرجى اذا رجعت الى خلائقها الاولى البلاداتُ
وباتحادهما في الشأن من قِدَمٍ ما زال يرتبط الاسنى من الشانِ

***

يا مجد رمسيس كم ابقيتَ من عجبٍ فيهِ ومسألة عنهُ لحيرانِ
أبغضْ به في المدى من هادمٍ حنقٍ وحبذا هو للتاريخ من بانِ
عالَى الصروحَ كما والى الفتوحَ بلا رفق بقاصٍ ولاعطفٍ على دانِ
أكان منزلُه في المجد منزلهُ لو رقَّ قلباً لشيب او لشبانِ
ام كان ما ادركت مصرٌ على يدهِ ذاكَ المقامَ الذي ازرى بكيوانِ[١٠]
تخيَّر الخطة المُثلى له ولها يعلو فتعلو به والخفض للثانى
ما زال بالقوم حتى صارَ بينهم إلهَ جندٍ تحابيهِ وكهّانِ
وربَّ سائمة بلهاء هائمة تشقى وتهواهُ في سرٍّ واعلانِ
يسومها كل خسف وهي صابرة لا صبرَ عقل ولكنْ صبرُ اتانِ

(٩) جمع فن فرع وافنان (١٠) النجم المعروف

ألاَ وقد بلغت في الخافقين بهِ مكانة لم تكن منها بحسبان
ان بات في حجبٍ باءت الى نُصُبٍ يلوح منه لها معبودها الجاني[١١]
فَبُجلت تحت تاجِ المُلك مدميها وقبّلت دَمَها في المرمر القاني
واليومَ لو بُعثت من قبرها لبدا لها كما خبرته منذ ازمان
ما زال مسخراً على العهد الذي عهدت بلا فؤادٍ وان داجى بجنان
مسخّراً قومهُ طُراً لخدمته وما بغى. رُبَّ سوء محض احسان
مخلّد المجد دون القائمين بهِ من شوس حرب وصنّاع واعوان
مخالساً ذمة العلياء مضطجعاً من مهد عصمتها في مضجع الزاني
بحيث آب وكل الفخر حصتهُ ولم يؤبْ غيرهُ الاَّ بحرمان
كم راح جمعٌ فدى فردٍ وكم بُذلت في مشترى سيّد ارواح عبدان
لموقع الامر فيهم كل تكرمة ومنفذِ الامر فيهم كل نسيان

***

كلا وعزتهِ فيما طغى وبغى وذُلّ من قبل الضيزى باذعان[١٢]
هم الذين على عُسْرٍ بطلبهِ قد اسعفوه بأموال وفتيان
وهم على سَفَهٍ دانوا بمن نصبوا فخولوه مديناً حقّ ديّان
فيمَ الاولى صنعوا أنصابَه، درست رسومُهم منذ باتوا رهن اكفان
وما لأسمائهم دون اسمهِ دفنت شُعثٌ منكّرة في رمس كتمان[١٣]
ان يجهل الشعب فالحكم الخليق بهِ حق العزيزين من زان وسلطان
او يرشد الشعبُ يُمس الامر في يدهِ ولا اعتداد بأملاك وأعيان

(١١) اسبحت الامة مع جنايته عليها وتكاليفه لها بدلاً من تبصره ترجع الى تماثيله لتشاهد وجهه فيها (١٢) الضيزى هي القسمة الراجحة لواحد على الآخر بلا حق (١٣) اسبحت اسماؤهم قد علاها التراب ورجعت نكرات مجهولة

ليت البلاد التي اخلاقها رسبت يعلو باخلاقها تيار طغيان
النار اسوغ ورداً في مجال علًى من بارد العيش في افياء فينان
اكرم بذي مطمع في جنب مطمعهِ ينجو الاذلاً من خسف وخسران
شهبٌ فيهم كإعصار فينقلهم من خفض عيش الى هيجاء ميدان
بعض الطغاة اذا جلّت اساءتهُ فقد يكون به نفع لاوطان
في كل مفخرة تسموُ الشعوب بها تفنى جموعٌ مفاداة لأحدان (١٤)
كم في سنى الكوكب الوهّاج مهلكةٌ في كلّ لمحٍ لأضواء والوان

***

لم ترقَ في حقبةٍ مصرٌ كما رقيت في عصرهِ بين أمصار وبلدان
لما رمت كلّ نائى الشوط ممتنعٍ بسابقين الى الغايات شجعان
ألا ترى في بقايا الصرح كيف مضوا بأوجهٍ باديات البشرِ غرّان (١٥)
وكيف عادوا ورمسيس مقدّمهم الى الربوع باوساق وغلمان (١٦)
فبعد ان صال بين المالكين بهم صار الكبيرَ المُلّى بين اوثان
بالأمسِ يُدنيهِ قربان لالهةٍ واليوم يأتيه اربابٌ بقربان
ان يفدُ ربّهم الاعلى فلا عجب هل من نظام بلا شمس لاكوان
جهالة ولدت فيها قرائحهم ضروبَ نحت وتصوير وبنيان
مما لو استطلع الراني بدائعهُ لما انقضى عجبُ المستطلع الراني
في كل منكشف كنز، ومستترٍ مظنةٌ، لخبايا ذاتِ اثمان
آيات مقدرة جلّت دقائقها تخالها صُنعَ مرّادٍ من الجان

(١٤) آساد (١٥) جمع اغر اي مشرق (١٦) الاوساق المحمولات من تجارات وغنائم والغلمان اشارة الى سبيان الحرب الاسرى

تقادمَ العُصُر الخالي بها ولها ... تمُّ الجديدَين من حذق واتقان
لم يعتورْ عبدَها مهدومُ أروقةٍ ... ولم يُذِلْ فنَّها مهدودُ اركان
وراض كل ابي هَول بها جَرِدٍ ... دُمَى تهاويلُها آياتُ إحسان[١٧]
وزاد روعتَها انقاضُ آلهةٍ ... فيها حَوانٍ على أنقاض تيجان[١٨]
سجودُ ما كان مسجوداً لهُ عظةٌ ... في نفس كلِّ لبيبٍ ذاتِ أشجان
ورُبَّ رُزءٍ بآثارٍ اشدَّ اسى ... منهُ مُلِمًّا باشخاصٍ واعيان
والتاجُ أشجَى اذا ما انقضَّ عن صنمٍ ... منهُ اذا ما هوى عن رأس إنسان

***

بيت عَتيقٌ يُرى فيهِ الكمالُ على ... ما شابَهُ الآنَ من اعراض نقصان
حججتُه وبهِ من طول مُدَّتهِ ... وفَضْلِ جدَّته للطرف حُسنان
ما زالَ والدهرُ يَطويه وينشرهُ ... يُزهى جَلالاً رواقاهُ المديدان[١٩]
في النَّقش منهُ لاهل الذكر قد كتبت ... آيات ذكرٍ باحكام وتبيان
تنزلت صُوَراً واستكملت سُوَراً ... في مُصحفٍ من دعامات وجدران
شاقت بفتنتها الاقوامَ فاقتبسوا ... منها اصولَ حكومات واديان
ومن حِلاها استمدوا كلَّ تحليةٍ ... بلا مُحاشاةِ اغريق ورومان

***

هذا هو المجدُ، نَفنى والبقاء لهُ ... على تعاقُبِ اجيالٍ وازمان
تاريخُ مصرَ، ورمسيسٌ فريدتهُ ... عقدٌ من الدر منظومٌ بعقيان
ما مثلهُ في طُروس الفخر من قِدَمٍ ... طِرْسٌ من الفخر اوعى كلَّ عُنوان

(١٧) الدمى التماثيل الصغيرة والتهاويل الزخارف والتحليات فيها (١٨) اشارة الى التيجان الساقطة عن رووس الآلهة والمتروكة في الارض مكسرة مبعثرة (١٩) للاعمدة في هذا الهيكل رواقان ممتدان من آيات الفخامة والجلال